الفن

للفيلسوف الفرنسي برجسون

نقلها سليم سعده

ما هي ماهية الفن ؟ لو قدر لنا ان نصطدم بالحقيقة رأساً بحواسنا وضميرنا ، او كان في مكنتنا ان نحتكّ مباشرة بالاشياء او بأنفسنا اذن لاعتقدت ان الفن أصبح معدوم الفائدة او بعبارة أصح، اننا نصبح جميعنا فنانين، فتستطيع روحنا ان تتفق مع الطبيعة بغير انقطاع وتستطيع عيوننا — بمساعدة ذاكرتنا — ان تقتطع من لوحة الفضاء غرراً ثابتة لا تنازَع لثبتها على صفحة الزمن ، وتستطيع نظراتنا ان تلتقط كلمح البصر ، من الرخام المنحوت في الجسم البشري الحي ، أجزاء تمثال لا تقل جمالاً وروعة عن تلك الاجزاء المجسمة في التماثيل القديمة ونستطيع ان نسمع في أعماق نفوسنا ألحاناً أشبه شيء بالموسيقى تارة شجية وتارة ، وغالباً أشبه شيء بالانات المؤلمة : ولكنها في مجموعها غريبة اذ تمثل أنشودة حياتنا الداخلية المستمرة . كل ذلك يتجلى حولنا ، وكل ذلك يدور في دخيلة نفوسنا ، ومع ذلك كله لا نستطيع أن نتبين منه شيئاً

لان بين الطبيعة وبيننا .... ماذا أقول ؟ ان بيننا وبين ضميرنا الذاتي ، حجاباً ، هو حجاب كثيف بالقياس الى عامة الرجال، وهو حجاب خفيف يكاد يكون شفافاً بالقياس الى الفنان والشاعر . فأية حورية او جنية نسجت هذا الحجاب ؟ وهل كان ذلك خدعة منها أم صداقة ونبلاً ؟ كان لا بد من الحياة : والحياة تحتم ان نختص الاشياء فيما لها من العلاقة بمطالبنا . ان الحياة تتطلب العمل . والحياة هي ألا نرضى من الاشياء إلاّ بما يعود علينا من التأثير المفيد كي يتسنى لنا ان نجيب عليه بما يلائمه من الانفعالات : اما الانفعالات الاخرى فيجب ان تتلاشى او لا تصل الينا الاّ في صورة مبهمة

اني انظر فيخيل اليّ أني أرى ، وأصغي فأعتقد أني أسمع ، وأدرس نفسي فأتوهم أني أقرأ في قرارة نفسي وقلبي . حتى ان ما أراه وما أسمعه من العالم الخارجي ليس الاّ ما تنتزعهُ حواسي من هذا العالم لترشدني وتهديني

ان ما أعرفهُ من نفسي لا يزيد عما يطفو على سطح هذه النفس وما له صلة بالعمل واذن فان حواسي وضميري لا يقدمان لي من الحقيقة الا صورة مصغّرة عملية بسيطة . فازاء الرؤيا التي توحيها اليَّ حواسي وضميري عن الاشياء وعن نفسي ، تتلاشى الفوارق التي لا تفيد الرجل . أما أوجه الشبه التي تفيد الرجل فانها تزداد وتتضاعف ، والى جانب ذلك ترسم لي الطرق التي يجب ان تسلكها اعمالي . وهذه الطرق هي التي سرت فيها الانسانية بأسرها من قبلي . لقد وضعت فيها الاشياء بنظام تام ليسهل اختيار ما يصلح منها للغرض الذي أقصدهُ وأترجاه . وهذا النظام بالذات هو الذي أتبينه أكثر مما أتبين لون الاشياء وشكلها . لا شك في ان الرجل أسمى كثيراً من الحيوان من هذه الناحية . وانهُ لا يحتمل ان تفرق عين الذئب بين الجدي والحمل ، فكلاهما في نظره فريسة واحدة وكلاهما سهل الاقتناص لذيذ الطعم

أما نحن فاننا نفرق بين النعجة والخروف ، ولكن هل نستطيع ان نميز بين نعجة ونعجة وخروف وخروف ؟

ان فردية الاشياء والكائنات تغيب عنا كلما اتفقت حاجتنا الى تبيانها للتفريق بينها . بل وفي الحالات التي نفرق فيها بينها (كالتي نفرق فيها بين رجل ورجل آخر) ليست الفردية او الانسجام في الاشكال والالوان هو ما تلتقطه أعيننا اذ انها لا تلتقط الا لمحة — او اثنتين — هي كافية في الواقع لتسهل علينا معرفة الشيء معرفة عملية تامة

***

وجملة القول هو اننا لا نرى الاشياء بالذات ، واننا نكتفي في أغلب الاحيان بقراءة البطاقات الملصقة عليها . وهذا الميل ، الناشيء عن الحاجة ، قد ازداد بتأثير الكلام لان الكلمات (فيما عدا الاسماء) تعبر عن الانواع . والكلمة التي لا تعبر الا عن وظيفة الشيء الشائعة ومظهره العادي ، تتدخل بين الشيء وبيننا وتخفي شكله عنا ، إن لم يكن الشيء قد توارى وراء الحاجات التي خلقت تلك الكلمة بالذات . وليس الامر قاصراً على الاشياء الخارجية ، فهناك حالاتنا النفسية التي تحتجب عنا بما فيها من أسرار خفية ومظاهر شخصية على الرغم من انها شغلت حياتنا . اننا عند ما نشعر بالحب والحقد ، عند ما نشعر بالفرح أو الحزن ، فهل شعورنا هذا هو نفس شعورنا الذي يصل الى ضميرنا بما فيه من تقلبات شاردة ورنات عميقة تجعل من هذا الشعور جزءاً من ذاتنا ؟ أما انه لو صح ذلك لاصبحنا جميعاً روائيين ، وشعراء ، وموسيقيين ، ولكننا في الغالب لا ندرك من حالتنا النفسية إلا مظهرها الخارجي ،

انا لا نعي من مشاعرنا إلاّ ظاهرها الذي استطاع الكلام أن يعبر عنه ، لأنه يكاد يكون متشابهاً عند جميع الرجال . وهكذا يغيب عنا معنى الفردية حتى في شخصنا الذاتي ، مما يجعلنا نتقلب في وسط العموميات والرمزيات ، كما لو كنا في حقل يحيط به أسوار تقاس فيه قوتنا مع غيرها من القوات حتى اذا ما سحرنا العمل وجذبنا بما فيه نفعنا الى الميدان الذي اختاره ، أصبحنا نعيش في منطقة متوسطة بين الاشياء وبين أنفسنا ، خارجة عن الاشياء وخارجة أيضاً عنا

على ان الطبيعة لا تكشف — عن بُعد وعلى سبيل اللهو — عن افراد نفوس هي في عزلة عن الحياة وإثارتها

اني لا أتكلم عن العزلة المختارة التي يسلم بها النطق ، العزلة وليدة التفكير والفلسفة ، ولكنني أقصد تلك العزلة الطبيعية اللازمة للكيان الحسي أو الضمير وهي التي تتجلى في الحال بطريقة عذرية في النظر والسمع والتفكير . فاذا كانت هذه العزلة تامة واذا كفت الروح عن الاتحاد بالعمل في أحد مدركاتها الاولى ، أضحت هذه الروح روحَ فنان لم يرَ العالم مثلها اطلاقاً . تمتاز في جميع نواحي الفنون معاً ، أو بعبارة أصح ، إنها تصهر جميع أنواع الفنون في بوتقة لتخلق منها فناً واحداً ، وتدرك جميع الاشياء في طهرها الاصلي وصفائها الحقيقي

وكذلك الاشكال والالوان وأصوات العالم المادي بل وأدق حركات الحياة الداخلية . ولكن مطالبة الطبيعة بمثل ذلك كثير . بل ان أولئك الذين اتخذتهم الطبيعة من [illegible] وصيرتهم فنانين قد نزعت عنهم القناع من ناحية واحدة [illegible] الصادقة ، ونسيت أن تربط الادراك الاولي بالحاجة من اتجاه واحد فقط

ولما كان كل اتجاه يتفق مع ما نسميه [illegible] حاسة [illegible] فان الفنان يتجرد عادة في الفن بفضل تلك الحاسة بالذات

ومن هنا نشأ تنوع الفنون في الأصل ، ومن هنا أيضاً نشأ تخصيص الملكات والمواهب . فالفن يرتبط بالألوان والاشكال . ولما كان الفن يحب الالوان لمجرد الالوان ، والشكل لمجرد الشكل ، ولما كان يدركهما لذاتهما لا لذاته ، فانه لذلك يرى الحياة الخفية تتجلى خلال أشكالها وألوانها ، فيدخلها رويداً رويداً في ادراكنا الاولي الذي تبدو منه حائرة [illegible]

تحجب الحقيقة عن أعيننا ، وبذلك يحقق أسمى ما يطمح اليه الفن وهو أن يكشف لنا من أسرار الطبيعة

على ان هناك أنواعاً من الفن تنكمش على ذاتها ، فخلف آلاف الاعمال الناشئة التي ترسم شعوراً خاصًّا وتبرزه ، وخلف الكلمة التافهة الاجتماعيـة التي تعبر عن حالة نفسية فردية وتحجبها ، تبحث هذه الفنون عن ذلك الشعور ومن تلك الحالة النفسية ، وانهـا لتجتهد في أن تبرز لنا شيئاً مما تكون قد رأته لـكي تحملنا على القيام بمثل ذلك المجهود مع أنفسنا : انها تقول لنا : أو بعبارة أصح ، توحي الينا — بكلمات موزونة — أشياء لم تكن اللغة أو الكلام ليعبر عنها

***

وهناك أنواع أخرى من الفن تذهب الى أبعد من هذا المدى فتغوص في الاعماق ، فخلف مثار هذه الأفراح وتلك الأحزان تتناول شيئاً ليست له صلة ما بالكلمة — كبعض أهازيج الحياة والنفس المتصلة بكيان الرجل أكثر من اتصالها بمشاعره لارتباطها بالحياة واختلافهـا باختلاف الشخص وانفعاله وثورات اعجابه وأحزانه وآماله . وهي اذ تبرز هذه الموسيقى وتحركها تفرضها علينا وتسترعي انتباهنا اليها : بحيث تندمج فيها عضواً كما يفعل المارة اذا اختلطوا الى احدى دور الرقص واندمجوا عضواً مع الراقصين ، ومن ثم تحملنا على هز أوتار مرتبطة بأعماق نفوسنا كانت مستيقظة مترقبة اللحظة المناسبة لترن

وهكذا نجد ان تصويراً كان الفن أم حفراً أم شعراً أم موسيقى فليست له غاية ما الا اقصاء الرموزات النافع نفعها والعموميات المصطلح عليها عرفاً واجتماعاً ، وبالاجمال كل ما يحجب الحقيقة عنا لكي يضعنا امام الحقيقة بالذات ويوقفنا منها وجهاً لوجه . ان النقاش الذي قام بين أنصار المذهب الواقعي وانصار المذهب المثالي في موضوع طبيعة الفن كان وليد سوء تفاهم في هذه النقطة

ليس الفن في الواقع الا رؤيا تتجلى فيها الحقيقة ، حتى ان ذلك الصفاء في الادراك الاولي يحتم القطيعة التامة مع العرف المصطلح والرغد الغريزي المركز في الحواس او الضمير ، وفي النهاية يتطلب نوعاً من التجرد المادي عن الحياة وهو ما دأبوا على تسميته بالمذهب المثالي ؛ بحيث يمكن ان يقال — بغير مغالاة او تورية — ان المذهب الواقعي يكون ممثلاً في الشيء المصنوع عندما يكون المذهب المثالي مسيطراً على النفس ، وان الاتصال بالحقيقة بفعل الخيال وتأثير التجريد